مع النبي ﷺ

العالم قبل الإسلام

عصير الكتب

علي أحمد

مع النبي

"العالم قبل الإسلام"

علي أحمد

جميع الحقوق محفوظة © عصير الكتب للنشر الإلكتروني
http://book-juice.com

كتاب

مع النبي

المؤلف : علي أحمد

نشر في :ديسمبر ٢٠١٦

تصميم غلاف:أحمد صلاح زردق

تنسيق داخلى : عصير الكتب للنشر الالكتروني

إهداء

إلى حبيبي وقُرّة عيني

محمد –صلى الله عليه وسلم–

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم

مع النبي

العالم قبل الإسلام

يقول نبي الإسلام – صلى الله عليه وسلم – {إنّما بُعِثْتُ لأتَمِّم مكارِمِ الأخلاق }..

يعتريني سؤال –هنا– مهم دائمًا، يراودني، يحتل جزء مهم من عقلي، لماذا تبدأ كتب السيرة دائمًا بوصفٍ للعالم قبل الإسلام؛ قبل مجئ النبي محمد؟؟!

في كتب الفقه يبدأ الحديث عن الطهارة لأنها شَطْر –نصف– الإيمان، فهل وصف العالم قبل الإسلام هو نصف ما ترمي إليه السيرة النبوية؟!

في هذا التوقيت، وتحت سطَوة السؤال، أغرق في خيالاتي، أتخيّل المؤرِّخ، أتخيّل غيرته على الإسلام، يرى فيه الحق كما نراه أو ربما أوْضَح أو ربما أقل توضيحًا، ليجعلك تعيش فترة التغيير الجذري للعالم؛ لابد وأن تعرف كيف حدث التغيير، وما هي قيمة التغيير الذي حدث؟

لابد وأن يجعلك تُشاهِد –بعينٍ صالحة– كل ما كان فيه العالم من فسادٍ وطغيان وإفساد لكل صالح ، وتأصيل لكل شر ممزوج بمصلحة تتصالح مع ذوي الطبقات العليا؛ فقط

الطبقات العليا..

ولكن هل معنى ذلك أن هذا العالم –قبل الإسلام–كان بهذا السوء الذي ذَكَرهُ المؤرِّخون؟!ألم يكن هناك شيئًا ولو يسير من حق أو خير يلتزم به من يرى فيه من الصواب ما رآه المسلمون بعد ذلك بنظام التشغيل القرآني؟!

ودليل يسير على ذلك؛ النجاشي ملك الحبشة –وقت الهجرة الأولى– كان حاكمًا عادلًا كما قال الحبيب – صلى الله عليه وسلم –؛ وفي هذا العصر –عصرنا–لتتخيّل أنه الآن حاكمًا، فمن المؤكّد أن حُكْمنا –أو بعضنا–عليه لن يكون سوى بالكفر والطغيان وجواز قتاله –كما يفعل الكثير الآن– أو بالأحرى كراهيته لكفره،أو تنشأ فتوى لدارهدّامة تقليديّة بأن الهجرة للحبشة هجرة لديار كفر والتعامل مع هذا النصراني حرام شرعًا.لكن شيئًا من هذا لم يحدث..

امتلك النبي محمد –صلى الله عليه وسلم–من المرونة التي جعلته يفهم ويُعلّمنا معه أن رسالة الإسلام رسالة حق وخير وعدل للبشرية، لكل مخلوق على وجه البسيطة..

{نما بُعثت لأتمِّم مكارم الأخلاق}.. معنى ذلك توضيحًا أن الأخلاق كانت موجودة، كانت مُفعّلة، كان البعض يتّصف بها برغم غرابتها وغُربتها في ذلك الوقت، البعض وليس

الكل في مجتمعات، والكل وليس البعض في مجتمعات أخرى..

الأخلاق تنبع من البيئة أحيانًا، أو بقايا من دين حنيف أحيانًا أخرى، أو تربية، أو قانون أو عُرف.. المهم أنه كان هناك أخلاق وهي الأساس وعليها وعلى فُلْك الإسلام كانت الحضارة على أعناق الرجال –الصحابة–..

فالإسلام ثورة، الإسلام في جانب من جوانبه الإيجابيّة المتعدِّدة كان ثورة –ربيع عالمي– ، ثورة على المصلحة التي تقتل الأخلاق قبل أن يصل نعيمها للعقول، ثورة على الصفات الفاسدة المُفسِدة وغياب التعقُّل عنها، ثورة على العصبيّة القبلية والحروب التي بسببها أُرِيقَت الدماء، ثورة على العنصرية والطبقية التي كانت تسود العالم في ذلك الوقت..في قارات العالم القديم كله، ثورة، الإسلام ثورة، ثورة للحق..

والسؤال هنا للجميع بل للجموع ، كيف يمكن أن يكون الإسلام ثورة لعودة الحق الذي طال غيابه إلا ما رِحم ربي.. لسنا في حاجة للبكاء، بل في حاجة أَمْس للقيام، للتغيير، لثورة، للحق؟؟

لأني مؤمن أشد الإيمان أن ثورة الإسلام مستمرة على القبيح..ثورة للحق.

****

الإسلام ثورة..هذا ما أراه

ولكن على ماذا قامت الثورة؟!

وهل كان لقيامها منهج أم كانت ثورة غضب؟!

وهل ما قامت عليه انتهى للأبد أم أن وجوده له حِكمة مُعيّنة بل حِكَم كثيرة للتدبر والإجتهاد؟!

فمثلًا..

هل قامت الثورة على الكرم الذي امتاز به العرب في ذلك التوقيت..إلى الدرجة التي كانوا يتسابقون ويتبارون فيها على الكرم ،وإعطاء من لا يخشى الحاجة..والتفاخر فيما بينهم بخُلُق الكرم..الأمر الذي جعل من أشعارهم ساحة لوصف هذا الخُلُق وأهله؟!

لا..الإسلام لم يأتي لدحر هذا الخُلُق الكريم، بل لتقوية شوكته، وزحزحته عن أعراض الجاهلية، أعراض مرض الجاهلية!! وتنقيته من الشوائب التي كانت تعوق مسيرة الحضارة،

حضارة كانت في بدايتها..

لأن الكرم وكما كل الأخلاق في هذا العصر لّوثتها الجاهلية بغطاء النفوذ والمنصب، الجاه والرئاسة، العظمة والغرور، وللحق لم يكن هذا الأمر موجوًدا عند كل العرب، لكنه كان موجوًدا على أي حال..

مثلًا..الخمر.. كانوا يعتبرون الخمر نوعًا من أنواع الكرم؛ لأنها تسهل السرف على النفس، وتتحلّى الجد في أوقات اللهو، ولكل َمقام َمقال، أو بالأْحرى لكل مقعد تكاسل عن القيام مقال لا يُفضي إلى فعل قويم، لذلك كانوا يُسمُّون شجر العنب بالكرم، ولّما أتى نبي الإسلام بالمنهج القويم الذي يصنع حضارة ويبنيها، كان لابد من إزالة شوائب الكرم، وتقديمه في أبهى ُحلّة وأعظم صورة تُمثّل حضارة من أعظم الحضارات على وجه الأرض، وبالعقل سأل وبالعقل أَجْبنَا على سُؤالٍ ُمميّز، هل ما يميز المجتمع الذي يصنع حضارة عقل واعٍ أم عقل غائب عن الوعي؟!

الكرم خُلُق حميد، لكن كل شئ وله حدود؛ حتى الأخلاق، عندما تجعل منها سلعة، فقد تجاَوْزت بذلك حدود العقل والواجب، حدود صناعة الحضارة إلى حدود هدمها، لكن الأخلاق ستظل موجودة، وسيظل الخير في أمة محمد –صلى الله عليه وسلم– ربما يكون

هناك هدم لكنه ليس ردمًا على أي حال، ومن الممكن أن ننتشله من تحت الأنقاض، إن كنا نريد لحياتنا معنى..

ومثلًا..الميسر..كان العرب في الجاهلية يرونه برؤيا خاصة، لا تمتاز بالبصيرة على قدْرٍ مُعيّن، فالبصيرة القلبيّة والماديّة لا يجتمعان في مكان واحد..يروْنَه نوعًا من أنواعِ الكرم أيضًا.. كل ما زادِ من مكسب المرء يُغدَق على الفقراء من نِعمِه -عادة-، ولكن السؤال هنا أيضًا للعقل، وبالعقل سأل قوم يعقلون ويتفكّرون، هل هذا الفعل يُقِيم حضارة؟! هل إضاعة المال فيما لا ينفع ولا يضر إلا بمقدار ضئيل من كليهما يقيم حضارة ستبْنِي الإنسان قبل كل شئ؟!

لذلك قال الله -تبارك وتعالى- في سورة البقرة..

{ وَإِثْمُهُما أكبُر من نّفْعِهما }.

الثورة لم تكن على الأخلاق الفاسدة المُفسِدة فقط..

كانت أيضاً على الآثار السيّئَة لمكارم الأخلاق..لتنقيتها مما قد يعوق مسيرة التقدم بسرعة البُراق..سرعة الضوء، أو ربما كانت سرعة البشرية هي الأجدر بهذا الأمر، ليكون لنا فيها أسوة حسنة..

مهمة الإسلام..في قول رسول الإسلام –صلى الله عليه وسلم–{الحلال بيّن والحرام بيّن} و {لا ضرر ولا ضِرار}.

الحلال هو ما ينفع الناس، الحرام هو ما كان فيه ضرر حتى وإن كان ظاهره رحمة..رحمة مؤقتة..وعذاب أبدي..

الإسلام ثورة..ولا يزال ثورة..والثورة مستمرة..

ثورة على الأخلاق التي اندسّ سم المجتمع في عسلها الُمصفّى الذي هو فيه شفاء للناس..

****

ومن ضِمْن هذه الأخلاقيّات التي امتاز بها بنو العرب..وجاء الإسلام ليرفع من شأنها ويُزيل كل ما قد عَلِق بها من شوائب تعترض طريق البناء، سواء كان بناء الإنسان أو بناء المجتمع ككل، هو خُلُق الوفاء بالعهد..

قد يسأل السائل وله الحق، فنحن أحق بالسؤال من غيرنا ، وأجدر بالإجابة أيضًا، لماذا هذا الخُلُق بالتحديد؟! والإجابة هنا لأن العرب قد ضربوا في هذا الأمثلة التي تجعل من عقلك مُشتِّتًا، ربما، ومن قلبك منغلقًا على الجنون لا يلوي على عاطفة ولا تعقّل، لكني لا أريدك إلا أن تفتح ذهنك وتترك العاطفة إلى حين لحظة التعقل المطلوبة، أمثلة تجعلك تحترمهم وتقدرهم حتى ولو كانوا على غير دينك..وهذا ما يريده الإسلام..

من المهم أن نفهم أن العرب في الجاهلية لم يكونوا على القدر المُستمِيت من الفساد والإفساد في الأرض، فالعاقل لا يريد هذا ولا يتمناه بأي حال من الأحوال، وليس كل ما كانوايفعلونه خاطئًا ، وإن كُنّا لا نُنْكِر ذلك، لكن خطئهم الوحيد هو محبة الدنيا إلى درجة الإفراط، إلى درجة الجهل بالمصلحة العامة، وهنا معقل الجاهلية التي أَوْدَت بالعرب قبل الإسلام إلى الطريق المُنافي لقيَم الحضارة، أو حتى الطريق إلى بنائها، لم يكن هذا ببالهم بالتأكيد، كانت المصلحة الشخصية تطغى في هذه الآونة أكثر من غيرها، وربما غيرها –الآن–أكثر ، نعود للأخلاق فهي حديثنا، هناك من بحر القصص الذي يؤيّد هذا الأمر الكثير، لكني سأقتصر على إثنتين منها..

الأولى محل دهشة، وهي قصة السموأل بن عاديا..

وعن قصة السموأل، أ ن امرؤ القيس أَوْدَع عنده دروعًا، وأراد شخص اسمه الحارث بن أبي شمّر الغسّاني أن يأخذها منه، فأبى بالطبع، فأراد الحارث أن يأخذها غصبـًا حيث لا رادع هناك، فاحتمى السموأل بقصره في تيماء، وكان أحد أبناء السموأل خارج القصر، فأخذه الحارث وهدّده بقتله إن لم يسلّم الدروع، فأبى حتى قتل الحارث ابنه أمام عينيه..

اخَتلَفْت أو اتّفَقْت معي على هذه القصة، فالمشهد كان صعبـًا بالتأكيد، هناك من سيُضخّم الأمر وهناك من سيهّوله بكل تأكيد، وكلٌ على حِده يتحدّث وينطق بالرأي من منطلق تجربته أو نظرته للقصة، لكن إذا سألتني عن رأيي، فعلينا أن نأخذ القصة بما فيها من حسن وما عليها من مبالغة..

ومن الوفاء بالعهد والوعد تنبثق وتتولّد صفة لهي من أهم الصفات لقيام أي حضارة في التاريخ.. صفةٌ وُجِدت وساعدت في قيام الحضارة فيما بعد ظهور الإسلام..ما هي؟؟ دعنا لا نرتكز عليها الآن ، دعنا نذهب إلى هذا الحديث أولًا..

قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – {آية المنافق ثلاث : – ومن بينهم – وإذا اؤتمن خان}..

هنا وقفة مع المنافق، المذبذب بين جاهلية المصلحة وإسلام الأخلاق، المنافق يُعرف

بأنه يُظهر خِلاف ما يُبطن، ومن هذا تتولّد الذبذبة التي تحدّث عنها القرآن، مشكلته الأساسية في عدم التفرقة ما بين الحق والباطل، لأنه مذبذب، ليس هناك من كلمة بيّنة في قلبه، لا يملؤ قلبه الحق وكذلك لا يستوي فيه الباطل ولا ترسو له سفينة على أي بر، ومن هذا لا يتصف بالصفة الأساسية التي تنبثق وتتولّد من خُلُق الوفاء، وهنا مِعقل الفرس، الذي نسقيه ليركض إلى حيث منبت الحضارة، ألا وهي صفة الثبات..

إذا كانت هناك قضية، آمنت بها، أن تتصف بالثبات، نعم، هو الثبات، ليس في وجه الباطل –وإن كنت ستقف في وجهه يومًا ما– ، ولكن مع الحق دائمًا، كما السموأل، وكما عمر بن الخطّاب –رضي الله عنه– و هو الفاروق، لم تكن لديه مشكلة الذبذبة، الحق حق والباطل للهلاك، وبهذا قامت في عهده الحضارة الحق، وكانت من أعظم الحضارات التي شهدتها البشرية، مبدأ الوفاء على العهد وبالوعد، ومبدأ الثبات على ذلك..

من الممكن أن يراه البعض شيئًا من المغالاة، أو المثاليّة، لكن من ناحية بناء الحضارة، هي مثالية واقعية، لنا فيها أسوة حسنة وقدوة لا تقبل التباين في الأخلاق، كان لا بُدّ أن يكون هناك هذا المبدأ، ليس فقط وجوده وإنما تأصيله وتوريثه للأجيال، الإسلام لم يأتي

ليكتشف هذا الخُلُق، كان موجودًا واستخدمه النبي –صلى الله عليه وسلم– ومن بعده أبو بكر وعمر في تأسيس الحضارة الإسلامية، ومن بعدهم من يريد الحق دولة..

رسالة..لمن كان لديه هدف، والنية سليمة، والأخلاق أساس الطريق..توكّل على الله، واثبت على مبدئك، وإياك والتذبذب والحيرة..الحق معروف والباطل معروف..ودائًما نحن خلف الحق لنقهر الباطل..لا.بل أيضًا لنُقيم حضارة نحترم بها أنفسنا..

****

من الممكن أن تكون قصة السموأل –ومدى أمانته إلى الحد الذي خسر معه فلذة كبده– غير مقبولة عقلًا..

ستسود الأجواء حالة من التعجب، حالة من الدهشة والغرابة، وربما حالة من التقديس، وربما أيضًا حالة من حالات النفور..

القصة وردت كما نقلتُها..في كتب الرحيق المختوم للمباركفوري..الأغاني للأصفهاني..الكامل في التاريخ لابن الأثير..المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد

علي..

من الممكن ألا تقبلها، ومن الجائز أن تكون قد حدثت بالفعل، لذلك هناك من القصص الكثير، وفكّرت أن تسندها قصة أخرى، تُقوّي من عزيمتها، تنشد الجمال الغائب عن العرب قبل الإسلام –وإن كان قليلًا–..

والقصة لحاجب بن زرارة التميمي..وهو بالمناسبة والد الصحابي عطارد بن حاجب –رضي الله عنه–..

فقد استأذن كسرى في سكن لقومه على حدود مملكة الفرس أو في الريف كما ذُكِر عند البعض..وكانت قبيلته تعيش في جدب نزل بهم وأصابهم.. ولكن كسرى خاف وحُقّ له أن يخاف، فمن الصفات الأساسية في العرب قبل الإسلام أنهم أهل غدر، يغدرون ويحاربون أقرب الناس إلى قلوبهم، فكيف بَعدو يتمنّى أن تكون أرضهم من ضمن مملكته..وقالها له صريحة.. أنتم أهل غدر وخيانة..وطلب منه بعدها ضمان يضمنه، فأعطاه قوسه مقابل ألا يحدث أي شئ وإن كان وعده الذي وعده إياه دونه رقبته، ووفّى حاجب بوعده ولم يحدث أي شئ من جانب العرب الساكنين، وانتهى الجدب فرجع قومه لبلادهم وذهب إليه الصحابي عطارد –وكان قبل إسلامه– فأعطاه كسرى القوس وفاء وتكريمًا لوالده..

هذه من ضمن أمثلة توضح أن العرب لم تكن كل حياتهم فواحش وزنا وخمر –وإن كنا لا ننكر ذلك مرة أخرى–.. لكن العربي لم يكتسب صفات الكرم والوفاء والعزة والشجاعة حينما أتى الإسلام فقط.. ما أريد أن أصل إليه أن الإسلام عندما أتى تّمم على هذه الأخلاق، لم يجتثّها لأنها قديمة، ولم يحاول إختلاق الجديد، طالما هي في مصلحة المجتمع دائمًا وأبدًا وتُدِّر من النفع ما لا يضر، إذًا فالإسلام هو التربة الخصبة التي ينبت منها تلك الأخلاق والصفات الحميدة..

الإسلام كما قلت ثورة.. والثورة الحقيقية لا تمْحِي ما كان قبلها جملة واحدة، بل تمحي ما هو فاسد ومن مصلحته الضرر بالمجتمع المُتمثّل في الفرد الواحد، العقل الواحد، خليفة الله في الأرض..

وإذا كان الحديث أخذنا عن الأخلاق الحميدة في عالم ما قبل الإسلام فأنا لا أنكر أن الصفات السيئة كانت فيهم تتجلّى واضحة وكان يجب أن يُوجد من يقتلعها من جذورها، وهو بالضبط ما فعله الإسلام، ولكن ببذور جديدة وحميدة..

****

الفرد..

إحدى مُمَيّزات الإسلام، القوية في جمالها، والجليلة من بعد قوة، أنه جاء في قوم فيهم ما فيهم من السوء، وحتى الأشياء الحسنة كانت ممزوجة بالأخطاء المجتمعية..

بمعنى..

بالنسبة للفرد مثلًا..

الفرد العربي كان حُرًّا، إحدى مميزاته التي تقاطعت مع الإسلام في الطريق إلى هدفه الأصلي والأصيل، أنه لا يقبل أن يستعبده أحد ولو على سبيل المجاز أو الفُكاهة المُرّة، لكن الحرية الشخصية كان إستعمالها وقتها -كما الآن- بتوظيف خاطئ، أضّر بالفرد، أضّر بالمجتمع إن لم يكن قد ألحق به ضرًرا بالغًا بالفعل، وكما الجّراح لا بُدّ وأن نُشخّص الحالة لنرى ما يجب فعله بعد هذا التشخيص..

دين الإسلام كان به من التوازن الذي يحقق للفرد ومن بعده الأسرة ومن بعدهما المجتمع، ويكفل لهم الثقافة النافعة والحضارة المبنيّة على القيم والأخلاق السليمة المُنتَقاة من

وحْل شوائبها، وزيادة فهي تكفل الحرية الحقيقية وليس التي يدّعيها البعض وهو منها في حِلْ -كما الآن-..

ونظرة صغيرة على مجتمعاتنا الآن، وخصوصًا بعد الثورات والإضطرابات التي قامت في الآونة الأخيرة، فإن الحرية ومفهومها تغيّر بشكل كبير عن المفهوم الإسلامي المعتدل..

تقوم الثورة وتُزيل كل ما كان قبل -رغم طهارتها المُنبثِقة من طهارة أبنائها-، تحاول إستئصاله، وقبل أن تستئصل الورم تأخذ معه جزءًا لا يتجزّأ من جسد المجتمع، وبالتالي فإن العملية يتخلّلها الفشل حتى وإن قام المجتمع مّرة أخرى، فبمجرد قيامه سيكتشف أن هناك ما هو يبدو للجميع ناقصًا، حتى وإن كان به بعضًا من الخطأ، لأنه ليس هناك منهج، ليس هناك ما يسد فجوة الجزء الذي تم استقطاعه من جسد المجتمع -وليس هو بالتأكيد ما توارث أنه أصح الصحيح وغيره هو الخطأ المطلق، فهذا من جانب يلغي العقل ويستدرج الحرية الشخصية إلى فخ الجاهلية مرة أخرى- وإن كان موجودًا فلا بُدّ أن يكون بنفس الإفادة وإلا شعر العالم بتغيّر، وليتَهُ تغيّر للأفضل، بل هو على النقيض..

الثورة الفرنسية، وهي ثورة التي دعت وأصّلت للعلمانية -وهي لحظتهم وخاصتهم ولسنا منها في شئ- قامت على الكنيسة وجبروتها، ومدى تحكمها في خلق الله الذي أصبح لا

يُطاق، إذا نظرت الآن لفرنسا، فلربما تخدعك المظاهر، تتيقّن أن ثورتهم كانت على حق، وإن كانت كما تعلم أن هذه الثورة كانت منذ أكثر من قرن، فانظر لمدة قرنين من الزمان بعد هذه الثورة، ماذا فعلت فرنسا لكي تكون هي فرنسا؟ لم تفعل هذا ولم تصل إلى ما وصلت إليه إلا بقتل ووحشية ودموية وإحصائيات لم يعهدها التاريخ -ما يُسمى عنوة بالإسلامي-، وإن كان التاريخ (الإسلامي) -تاريخ الرسول وأبي بكر وعمر- أجلّ رحمة وأعظم خُلُقًا، العنصرية والطبقيّة والحروب والإحتلال بدافع الصراع لم يكونوا مثل ما كانوا في ما بعد الثورة الفرنسية -ثورتهم هم- ، الصراع دائمًا وأبدًا هو آفة الإنسان التي جاء الإسلام ليجعلها في الخير، في الخير فقط..

الإسلام كدين صحيح ومنهج سليم لا تشوبه شائبة تُعكّر صفو ماءه، ولن يتم تحقيق هذه الثورة الحق إلا بالمبادئ الإسلامية والمنهج الإسلامي الصحيح، فقط الصحيح وليس ما تراكم من عادات لم نُدرِك مغزاها..

الأمر شبه مستحيل؟ أسمعك تقولها، لكن الأمر يحتاج لنظرة من قريب على السيرة النبوية، ستكتشف أن الأمر لم يكن إلا مستحيلًا، فرد واحد؛ النبي وحده، وفي مجتمع يغوص في بحر الماديات والشهوات، لايعرف من الحضارات سوى الفرس والروم

والحبشة الغارقات في الماديات أيضًا، حضارات تكاد تُهلِك العالم..

والآن العالم على حافة الهلاك، كما كان وقتها، ولكننا كُثُر، أنكون غثاء كغثاء السيل !!، أنا لا أرتضيها وأنت كذلك بالتأكيد، لسنا في حاجة إلى البكاء والعويل على زمان كُنّا فيه، بل التطلع إلى زمان نكون فيه، ودعك ممن يُروّجون أن القيامة على الأبواب، فإذا قامت الساعة وكان في يد أحدكم نبتة فليغرسها، ليس كلامي وإنما كلام نبي الإسلام، نبي الرحمة، وأنا به مؤمن أشد الإيمان ..

الأخلاق السيئة قابلة للتغيير وفي وقت قصير، هذا ما تعلّمناه من السيرة النبوية، الأمر يحتاج للإرادة وللتخطيط الجيد، التخطيط وليس تخطيط التخطيط وتعلُّم التخطيط !!..

لا بد أن يُستأصَل المنهج الفاسد من جذوره، لكن، قبل هذا الإستئصال، لابد وأن يكون معنا و في أيدينا، بل في قلوبنا وعقولنا، على مَرْمى أبصارنا وبداخل بصيرتنا، المنهج، الثورة، الإسلام كما سمّاه الله..

كيف يحدث هذا ؟!، لابد أولًا أن نتيقّن أن الأمر قابل للتحقيق، وهذا ما حدث مع النبي طوال مسيرته الخالدة، وثانيًا لابد وأن نعرف كيف حدث هذا، بالتفصيل، فالشيطان لا يستطيع أن يدخل معنا في هذه التفاصيل، ربما لأنه لا يريد أن يتذكّر ذلك الماضي الذي

خسر فيه الكثير، لكننا نريده ونريد أن نفهم لماذا كان إبليس يتحسّر، وقبل أن نبدأ، لابد وأن نتعرف على الأشياء التي كانت كفيلة أن تهدم المجتمع العربي كله، وجاء الإسلام وبدّلها للأخلاق النابعة من صفو الجمال، لتُقيم حضارة..

****

بالنسبة للفرد العربي، قِوام أي أسرة، شعلة أي حضارة عبر الأزمنة المتتالية أو فلْتقُل شرارتها، هل كان حاله أفضل مما هو عليه الآن في عالم ما قبل الإسلام؟!

نحن لسنا في مجال للمقارنة، ولا ساحة جدال ومِراء خفي لا يتعدّى حدود الكلمات والأسطر وإن تعدّى فليقبع بداخل عقول حلّت العِصْمة لمن سبقوها، رغم أنهم يعرفون أن العصمة دُفِنت مع النبي –صلى الله عليه وسلم–، لو كنا نقارن فلنقارن مقارنة صحيحة، واقعية، تتعدّى حدود السطور المكتوبة، إلى سطور الكون، وإنسانية الإنسان..

الفرد العربي في دائرة الحكم قبل الإسلام، إمّا حاكم أو محكوم، أو بمعنى شديد الوضوح، إما ظالم أو مظلوم..

لو كنت محكومًا كفرد ما عليك إلا تُنصِت للأوامر، يستخدمك الآمر الحاكم لأجل هواه وإن ضلّه، من أجل رأس القبيلة تعيش في السِلم وأوقات الرخاء والرفاهية، تزرع تتاجر تتعب تشقى يتكلل مجهودك في النهاية بظلم بيّن، حتى وإن لم يكن واضحًا فهو ظلم أشد حلكة في حد ذاته، حتى وإن كنت راضيًا فالله لا يرضى بالظلم ولا بالسكوت عليه، ترِد محاصيلك العقلية والنفسية والمادية للحكومات وما الحكومات إلا رأس القبيلة، التي تستخدمها في إستنزاف شهواتها وملذّاتها، ووقت الحرب تُطالَب بالموت من أجل القبيلة ورأسها أو بالنصر من أجلهما أيضًا، ليس لك من الأمر شئ، وإن كنت لا تفهم القضية، وحتى وإن كنت تفهمها فأنت مُبرَمج بنظام تشغيل جاهلي يُديره رأس القبيلة بالطبع، تحارب تصارع تتنافس ولوعلى قرن الشيطان لأجل مزاج الحاكم، من أجل غضبه فقط..

الفرد الذي أتكلم عنه هو المحكوم في عالم قبل الإسلام ولا مجال للمقارنة، لأنك لو أقحمت المقارنة في هذا الأمر فلن تجد سوى نفسك، لن ترى في المرآة الُمهشّمة الُمتّسِخة إلا نفسك، صدقني..

أما بالنسبة للحاكم، وللعلم فإن اختيار رأس القبيلة كان يتم بالمشورة والإختيار، بعد جلسة تضم أكابر القبيلة ليختاروا من بينهم الحاكم، إذا كنت أنت الحاكم فواجب على

الكبير والصغير أن يمتثِل لأمرك سواء كان أقرب للصواب أم أقرب للهلاك..

وقتها أنت في منزلة الملوك، أمركُ مطاع على قدر الإستطاعة، وبين يديك إنتاج قبيلتك تتصرف بها وِفق رؤيتك التي لن تكون إلا أنانية في معظم الأحوال، فالأمر لك، ولا مُسائلة أو حساب، وهناك بيت جاهلي يصف ما كان يتمتّع به الحاكم بعد أي حرب يخوضها وينتصر فيها..

لك المِرْباع فينا والصفايا   وحكمك والنشيطة والفضول

بمعنى أنك يا حاكمنا لك المِرباع وهو ربع الغنيمة، والصفي وهو ما اختاره الحاكم قبل القسمة أصلًا، والنشيطة وهو ما اغتنمتَه أنت أساسًا، والفضول وهو أفضل ما في الغنيمة، وفوق ذلك أنت الذي تحكمنا !!..

بمعنى أنك أيها الحاكم ديكتاتور وليس أمامك من معارضة ولك كل الحقوق وليس عليك واجبات سوى توفير متاع العيش لعامّة القبيلة..

كل الكلام السابق على القبائل في الجزيرة العربية ما قبل الإسلام، معظم الإسقاطات التي

توالت على رأسك تِباعًا، معناها أننا في حاجة ماسّة إلى الإسلام؟

ومن الممكن أن تكون كفرد سيد أو عبد..

إذا كنت سيد فهناك من الإمتيازات القليل لكنه كافي بشكل أو بآخر، وإن كان المجتمع في هذه الأيام قد تأقلم على هذا المِنوال، ولم يفكر أحد في التغيير إلا ما رحم ربي..

أما إن كنت عبدًا فحقوقك تكاد تكون معدومة، أنت مجرد عبد –ولك أن تتخيل– محروم من الحياة، من الحب، من التفكير، من التفوّه بأي كلمة إلا ما يرتضيه سيدك ويُرضيه، كان المجتمع يصرخ فيه –أنت لست من أبناء آدم–..قمة العنصرية..

قمة العنصرية التي رأينا منها في استراليا –في القرن العشرين– وقانون الأجيال المسروقة الذي أصدره البرلمان الأسترالي في أواخر القرن التاسع عشر، من حق أي رجل أبيض أن يسرق أي طفل من السكان الأصليين، لو كان أبيض يُودَع في مؤسسة للتبني، بينما الطفل الأسود يُودَع في ملجأ، حتى يتسنّى له أن يعمل في المزارع والمصانع عندما يكبر، وغيرها من العنصرية التي ملأت الكون في القرن التاسع عشر والعشرين..

ما الذي جعلني أتحدّث عن القرن العشرين؟؟ ربما للتشابه..

الإسلام كان فعلًا ثورة ولا يزال..

هناك فرد أخير –في عالم ما قبل الإسلام– لو كنت أنت هو لكنت أَرْحت نفسك من كل هذا العناء، من الممكن أن تكون الأفقر في القبيلة لكن بهذا الأمر تجعل نفسك من أسيادها وتُجالِس كبرائها، من الممكن أن تعفي نفسك شر القتال وُجهد الجهاد ببضعة كلمات، ومن الممكن أن تصل إلى حد أن يكون لك كلمة على صاحب القبيلة نفسها..

والقبيلة تتفاخر بك، وتستلْهِم منك كلماتك التي تُقال للخلود وليس لشئ آخر، وسوق عكاظ –مثلًا– هو خير مكان لك لتكتسب رزقك الموفور، أو لتكتسب شهرة واسعة..

وزارة إعلام متكاملة في قبيلتك..

والنبي –صلى الله عليه وسلم– لم يُنكِر دورك، بل نّماه وقّربه وسمع منه، وأظهر له إحترامًا شديدًا، وتم توظيفه بشكل صحيح في الإسلام..

الشاعر!! نعم هو الشاعر..

امتاز بتقدير موهبته، ليس لأنه صاحب موهبة فقط، ولكن لأنه كان قادر بكلماته البسيطة الُمنّمقة الُمنظّمة أن يؤثّر خير تأثير في الأعراب –الخلق البسيطة في العلم وقتها–..

والتأثير إما أن يكون إيجابيًا أو سلبيًا، وغالبًا –في عالم ما قبل الإسلام ما يكون بشكل سلبي نابع من الحياة الإجتماعية وقتها..

هذا مُلخص لحياة الفرد قبل الإسلام في الجزيرة العربية، ولم يكن الكل كذلك ولكن الأغلبية، أما عن الأسرة فهذا حديثنا..

****

وبالنسبة للأسرة..

قِ وام أي مجتمع في أي حضارة، في أي مكان وبكل الأزمنة المتتالية، المحرّك الأساسي للنهضة الأخلاقيّ ة أولًا، تبدأ من الفرد الواحد ومن ثّم الفردين وهكذا، إلى أن تتكّون الأسرة..

مهما يكن، فإن أي حضارة لا تقوم ببادئ ذي بدء إلا بتماسك هذه الأسرة، بترابطها، بالمودة والرحمة التي تتخللها، وأيضًا الحب الذي يشوبه الإيمان بضرورية الحب..

تفككها، إنعدام ما بها من رحمة متوارثة، يعني إنعدام إستمرار هذه الحضارة، بأي حال، حتى وإن كانت تمتلك من القوة العسكرية ما لا يُطاق ولا يُقهر..

قبل الإسلام، وتحديدًا في الجزيرة العربية، كانت الأسرة إلى حد ما شئ مُهلّس، لكن مفهوم الأسرة لم يكن قابعًا في العقول التي كانت تحتاج لُهدى بشكل كبير، فكانت الحروب لأجل الأسرة؛ أسرة الفرد الصغيرة، أو أسرة القبيلة ولا شئ أكبر، لكن هل كان هذا الأمر على عامّة شبه الجزيرة، أم أنه كان هناك أحداثًا أخرى ؟؟

مفهوم الدولة الواحدة لم يكن موجودًا بالشكل الذي أتى به الإسلام، لذلك لم يكن المفهوم الأمثل للأسرة هو الحاضر في عالم ما قبل الإسلام..

بداية من الفرد الأول، وفي حالة عدم زواجه، كان من الممكن أن يزني، بشكل لا تشوبه رائحة الخطأ، كان الأمر سائد في جميع الأوساط -إلا ما رحم ربي-، أتى الإسلام وحّرمها بسبب إختلاط الأنساب وهدم مفهوم الأسرة، ويبدو أن هذه الفاحشة كانت في الأغلبية الساحقة من أهل الجاهلية، وكانت الأغلبية منهم في الإماء، أما الحرائر فقليل ما هن، قليل ما تجد من يقترب من هذه الفاحشة، ولذلك كانت الحكمة من تقديم الزانية على الزاني في الآية الثانية من سورة النور، بسبب شيوعها في هذا الوقت من جانب النساء، ولأجل ترويع النساء لأنهن يحملن في كل الأزمنة هوية الإسلام، سواء من خلال مظهرهن أو تربيتهن للأجيال، وذكر ذلك القرطبي في تفسيره، وليس الأمر لا من قريب ولا من بعيد لِما تّم تداوله في القرون الأخيرة أن سبب التقديم هو أن المرأة هي سبب الفتنة ومنبع الإثارة..

النكاح، الزواج ، الزواج في الجاهلية كان على أربع أوجه مشهورة، وإن كان الأمر يتجاوز الأربعة، أحّل الإسلام الصحيح منها وهو وجه واحد فقط، وحّرم الباقي تحريمًا قاطعًا..

النكاح الأول..نكاح الإستبضاع..

الرجل يقول لإمرأته في تعالي وغرور، وقمة الفخر -إن كان هناك- اذهبي إلى فلان -وجيه القوم- فاستبضعي منه، فتذهب وتدخل بيته، ولا تخرج منه كما دخلت، تخرج فعلًا وبين أحشائها البضاعة، يعتزلها زوجها، لا يقربها ولا يمسّها، حتى يأتي الولد وجيهًا مثل أبيه الحقيقي -وهذا هو الغرض-..

قمة الدياثة، تقبع فوق ذروة جبل التناقض، كان لأي عاقل أن يُحرّم على نفسه هذا النكاح، وهنا السؤال، أليس الأَوْلى بالعربي الذي يتصف بالحمية والعصبية ألا يقبل على نفسه نكاح كهذا -إن كان يُسمّى نكاحًا- أليس في الأمر تناقض يُفضي إلى ذهاب العقل، وهو ما كان يحدث بالفعل..

النكاح الثاني..كان مشهورًا في الأوساط القبلية ، يدخل على المرأة رهط من الرجال -دون العشرة-، ثم يخرجون كأن لم يكن شئ، ليس هناك من ذنب، لكن الذنب الوحيد بعد أن يُولَد الولد، ترُى من هو والده الذي سيعيش في كنفه وتحت حمايته، يطعمه وهو يعرف أنه ربما ليس والده الحقيقي، وبالتالي فمن الممكن أن يتخلّى عنه في أي لحظة، بل لا بد لهذا أن يحدث إن كان عبئًا على الوالد المزيف -أو الحقيقي ربما-، لأن ما

يحدث يكون في يد المرأة، هي من تختار من الرهط واحدًا فقط –ربما هو الأغنى على أغلب الأحوال– لكي يكون والدًا للطفل..

النكاح الثالث، البغايا، بيوت الدعارة وقتها، صاحبات الرايات الحُمْر، كانت مُقننة بكل تأكيد، مقننة بالشهوة التي كانت تنزف كما الدم يجري في وريد ذكور بني آدم، وهو العمل الأحط قدرًا لدى المرأة، إذ يُذهِب بحيائها وعفتها، لكنها ربما تكون مُجبرة أو مُخيّرة بطريقة ما أو برضاها أيضًا، المهم أنهن كن هناك، في كل مكان حولك، ذات اليمين وذات اليسار ترى الرايات الحمراء مرتفعة، تُعلِن أن اقترب، هناك ما لذّ وطاب، ودَعْك بعدها مما يُشغِل بالك، دعك من التجارة العابرة والعمل الشاق في الرعي، دعك من الأخلاق وحسن الظن، دعك من البحث والتعقل، أنت كالبهيمة إن شئت، داخل خيمات الرايات الحمراء.. إذا وضَعت المرأة وقتها طفلًا يتجمّع القوم ليروا من كان هناك ليكون والد هذا الطفل..

وبكل ثقة أقول بعد كل هذا، أن المرأة كقيمة كانت تساوي صفرًا والصفر هو الآخر لا يساوي شيئًا، حتى لو كانت ترى غير هذا –وقتها–، إلا أنها لم تكن قد رأت الأفضل بعد..

قيمة المرأة حتى في وقتنا –للأسف–

في الزواج المبكر الغاشم منه، تساوي صفرًا لا ينطق، ليس لها أي قيمة، حتى وإن كانت ترضى بذلك، فحلم كل فتاة أن تكون زوجة وأمًا، لكن ربما لأنها لم ترى الأفضل بعد..

في الزواج المتأخِّر.صفرًا مجتمعيًا بجدارة، عانس –أطلقوا عليها–

في الإعلانات نراها، قيمة كبيرة، ولأن الشهوة هي المُحرِّك الرئيسي غالبًا– في مجتمعاتنا، في الذكور الأغبياء بالذات، وغبي –وليس شرقي– هنا تساوي بشكل كبير جاهلي هناك حيث نتعايش بين هذه السطور..

في العمل ..قيمتها لا تساوي أكثر من مدى إنتاجها للمنتجات الإستهلاكية، وليست المنتجات البشرية الأعظم إفادة وتعقيدًا –كما يقول الإسلام لكنه لا يمنع من العمل– .

في التعليم..لا تساوي الكثير.. قياسًا على قيمتها العملية، ومقارنة بدورها الأصلي والرئيسي إلى جانب آدم..

قيمة المرأة في الإسلام هي أعظم من غيره –في الحضارات الأخرى–، لم يظلمها الإسلام فهي كانت سعيدة في كنفه ووسط أجوائه، بل ظلمها الأغبياء –وللأسف– وهم

كُثُر..

النكاح الرابع.. النكاح الذي أقّره الإسلام، يخطب الرجل إلى وليته أو ابنته، توافق هي فيصدقها وينكحها، الأمر رغم بساطته إلا أنه فيه تقدير وإحترام كبيرين لمفهومي الأسرة والفرد الأول، كلعبة الشطرنج، تنتهي اللعبة إذا مات الملك، لكن الوزير هو الأهم في اللعبة، الرجل ليس مَلِكًا بالمفهوم المتداول لكن بالمفهوم الشطرنجي، يتحّرك حركة واحدة كفيلة بإنقاذ اللعبة برمتها، أما الوزير –الزوجة– فلها أن تتحرك وِفْق ما تشاء، وِفق ما تُمْلِيه عليها قواعد اللعبة الأصلية –وليس ما تم إدخاله عنوة–، تتحرك للدفاع والبقاء وأيضًا الفوز والحماية، للكل وليس لها وحدها، لذلك كّرمها الله بالحجاب –هوية الإسلام التي اختُصّت بها المرأة– تشريفًا وتكليفًا، هناك هدف ولا تكتمل مهمة الوصول إليه بغير هذا المفهوم، الكل مهم وليس الملك فقط –وهذا بالمناسبة ما تّم إدخاله عنوة في القرون السابقة ، أن الملك فقط هو الأهم !!–..

الإسلام ثورة ولا يزال..

شئ آخر مهم..

هناك، في الجاهلية، كانت هناك الأربعة أنواع أو أكثر من النكاح، لماذا لم يأتي الإسلام،

بمفهوم آخر جديد، وألغى كل ما سبق؟؟ الإجابة معروفة حتمًا، لكننا لا نفكر فيها، لا نتأمّل أو نتعقّل لِما ربّانا عليه الإسلام، إنها المرونة والإستخدام الصحيح، إنه تثبيت الشئ الحسن وهدم القبيح، إنه جلب المصلحة أولًا الذي يدرء المفسدة قبل درءها ونحرها، إنها صناعة الحضارة الحقيقيّة التي لا تقوم على مفهوم الهدم بقدر ما تقوم على مفهوم البناء على القواعد السليمة..

{وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبّل منّا إنك أنت السميع العليم }(البقرة:١٢٧)..

****

ومع الأسرة، كان ولابد أن نُكمِل لتكتمل لدينا الصورة، وإن ظلّت ناقصة، فلمن يقرأ أو يبادر بالفهم إكمال ما نقص..

العلاقة بالأخ أو ابن العم أو ابن العشيرة بشكل عام، كانت تمتاز بالعصبيّة، وإن كان إمتيازًا تراه لأول وهلة شئ مُقدّس، لكن فجوة الجاهلية دائمًا ما تتخلّل كل حسن وتصنع منه ما هو مُؤذٍ لنا بالقُبح، لكنه على أي حال وفي وقتها لم يكن هناك بديل أفضل..

علاقةالدرجة النصر، انصر أخاك ظالًما وظالًما فقط، مَثَل منقوص، لكنه كان يُمثّل قانونًا حياتيًا في مجموعة الدويلات –القبائل– والتي لم يكن من مصلحتها أن تجتمع على كلمة واحدة، لأن في هذا –سواء يعقبه أو يسبقه– إختلافات طاحنة تصل إلى حد الدماء التي امتزجت سلفًا بالصحراء..

(انصر أخاك ظالًما أو مظلومًا)..

وبأول كلمة من النبي أمر، واجب النفاذ، واجب الطاعة، واجب للواجب، جيد لبناء الحضارة، النصر الذي لا يكون إلا مع العمل، والعمل بالنصر مع الأخ –وليس الشقيق فقط..كما ليس الرجل للرجل فقط–في حالتين، لم يكن هناك لونًا رماديًا أيام الجاهلية، إمّا ظالم وإمّا مظلوم..

-- يا رسول الله هذا ننصره مظلومًا، فكيف ننصره ظالًما؟!

النصر للمظلوم شئ بديهي، تطيب له النفوس، لكن كره الظالم –وهو بمثابة أخاك إن لم يكن بالفعل–خُلُق لم يحث عليه الإسلام، لم يمنعه تلقائيًا، بل جعل من نقيضه الصحيح منهجًا قويًا، ليس فقط ذلك، بل السؤال في هذا الحديث يدل على أن السؤال دائمًا يكون من طباع الإيجابيين، السؤال للحق وللفهم، لم يُصدِروا –الصحابة– حكمهم

تلقائياً، بل لابد من السؤال، من المنهج التفصيلي، من الحياة الحق بالسؤال الحق، وليس الإعتماد على أجوبة جاهزة أو تأويل مُصطنع..

يُجِيب عليهم الرسول –صلى الله عليه وسلم–

(تأخذ فوق يديه)..

لا يتعدّى الأمر حدود الإمتعاض –فآداء الصلوات يتعدّى المفهوم الضيق للحركات، إلى أفق ورحاب وِسعة المعنى الجليل، الذي يأخذ بيديك إلى العمل بما تتلوه عليك تفسيرات الحركات، سواء كان قيام للحياة، أو خضوعٍ بركوعٍ للمولى –عز وجل–، أو سجدة من الفرعِ–وهو أنت– إلى الأصل –وهي الأرض––..كذلك أن تأخذ فوق يديه، لا أن تمتعض وتمصمص شفتاك، بل أن تُمسِك بيديه من رحاب الظلم الضيق –وإن قيل غير هذا–.. ولن تقف عند حدود أن تُمسِك بيديه وبقوة عن الظلم، بل أن تأخذ بيديه، فوق يديه، إلى النصر، الذي لا يكون سوى بحب أخاك –الذي من الطبيعي أن يُخطأ– وكُرْه ما فيه من ظلم لنفسه أو للبشر..

وكان هو الحل الوحيد والجذري لتُنسَف حروب كثيرة وأفكار لحروب أكثر كانت في الطريق، مثل ما كان بين الأوس والخزرج أو عبس و ذَبيان أو بكر وتغلب، أو ما كان

سيكون لولا المنهج الإسلامي -الثوري- الصحيح..

أيضًا كان هناك فعل ُمشين بدرجة وحشيّة، أسرة ما قبل الإسلام كانت تفعله، ويُعد من أشهر الأعمال قسوة في التاريخ -من وجهة نظري-، فأنت لن تستطيع بإنسانيتك المعهودة فيك وفي بذرتك الأصيلة أن ترى رجلًا يدفن طفلًا ويحثو على وجهه التراب، وإلا فلن تكون إنسانًا..

وأد البنات..

(بأي ذنب قُتِلت).سؤال لا بد وأن تُجيب عليه..سواء قتلها في حياتها -كما الآن- بالزواج المبكر أو إرغامها على ما لا تريد أو ضربها أو حرمانها من التعليم أو...إلخ أو من وأد شنيع في عالم ما قبل الإسلام..

ومقارنة بحال من الأحوال، جريمة قتل الأولاد خشية الفقر لا تقل بشاعة عن ترك الآباء لأبنائهم في طْور الإحتياج خشية الفقر أيضًا، حيث أن كثير من الآباء في العالم (المُتحضِّر) غير شرعيين، وكثير من الشرعيين تركوا أبنائهم وهربوا، لكي لا يتحمّلوا نفقاتهم..

هدم لمفهوم الأسرة، والذي سيليه هدم للمجتمع بالكامل، لكن هناك ما يُشبِه بصيص

الرحمة ينهمر علينا، في القلوب، والعقول، هنا أو هناك، شبه حضارتنا أو حضارتهم، المهم هنا هو الإنسان، المهم هي تلك الأسرة، أيًا كانت الديانة، فنحن جُلّ همّنا، أو المُفتَرض أن يكون، هو الإنسان..

وهنا سؤال –دائمًا ما سيكون هناك سؤال إستثنائي–، هل كان الوأد –القتل– منتشرًا بشكل يُعد معه الرحمة حالات إستثنائيّة؟؟ وللأسباب التي تحدّث عنها القرآن الكريم؟؟ ، {الأنعام : ١٥١ ، النحل : ٥٨..٥٩ ، الإسراء : ٣١ ، التكوير : ٨ }..

لا أعتقد ذلك ، ليس كل العرب، لم تكن قاعدة، وهناك قاعدة شعرية من العصر الجاهلي تقول

أولادنا بيننا أكبادنا تمشي على الأرض

غير أنه من السخف أن نقول غير هذا، أن نقول أن الله قد انتزع من قلوبهم الرحمة !!، لا أظن ذلك، لكن العقول كانت بحاجة إلى هداية، وهو ما أجاب عنه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب –رضي الله عنه– عند ما جائه شاب وسأله سؤال مهم، سؤال الُمتَعجّب من الحال الذي كانوا عليه وحالهم بعد هداية الإسلام..

-- يا أمير المؤمنين..ألم يكن عندكم عقل ؟

فقال أمير المؤمنين

--كان عندنا عقل ولكن لم يكن عندنا هداية..

المجتمع، من الممكن أن يكون قويًّا –ظاهريًّا على الأقل– ، متحضّر ومدني، لكن مشكلته الكبرى بل ومصيبته أن أي قشّة تكاد تكسر ظهره أو تُجْبِره على الخضوع الُمِذل، الخمر والزنا وحرية الفرد الخاطئة وهدم لمفهوم الأسرة، كل هذه الأشياء، كل هذه الُموبِقات لا يمكن –بأي حال–أن تُقِيم حضارة، أن تصنع ثقافة صحيحة، أن تصنع

الأُسس التي يجب ويجب أن يعيش عليها المُجتمع، إن أراد أن يعيش!! ..

موضوعنا، تفكيرنا، منهجنا، إمّا أن يكون صحيحًا مُتكاملًا وإلّا فلا..

ما الذي يجعل إذًا حضارات أخرى حاليًا– تقوم برغم ما فيها من أخطاء؟؟! والجواب عنوانه بسيط، لأن ليس هناك ما يوازي تلك الحضارة –حضارة أخرى أقصد–، فالحضارات مرايا لبعضها البعض..

لكن لماذا يتحتّم علينا النهوض بحضارة تجعلنا نستفيق مّم نحن فيه، الأمر مستتِّب، الأجواء وإن كانت رمادية لكنها ليست بالسوء الذي نتوقعه، سنموت وتموت معنا أحلامنا وأفكارنا، إذًا لماذا؟!! هل علّي أن أذكّرك يا صديقي أننا مسؤولون عن الأرض، أننا خلفاء الله في الأرض، هل علّي أن أُذكّرك يا صديقي أننا لن نحترم أنفسنا إلّا بالعمل، بالنهوض، بالقوة، بالعلم، بالعمل حتى آخر نَفَس، هل علّي أن أنعتك بالجُبْن في كل مّرة تتهّرب فيها وتنفض يديك وتقولها وكأن الأمر لا يعنيك

–- ليس لي دعوة..

لكن عليك يا سيدي أن تفهم أن كل واحد منّا توّجهت له الدعوة من أول يوم، من أول لحظة، لكننا نتهّرب من مهمتنا ونّدعي النسيان، لماذا؟؟ عليك أن تُجيب أنت بنفسك..

****

وإلى بلاد فارس..

لن يُغنِي الكلام عن الرسالة، ولن أسترسل في التعليق على روايات التاريخ التي تحتمل الصدق والكذب؛ وكأنها خبر جاء من مجهول ثقة، لكن الفكرة هي فكرة الموضوعية؛ الإسقاط المعاصر؛ العالم قبل الإسلام وعلاقته بما نعيشه اليوم؛ بالرسالات التي خلّفتها الأحداث التاريخية..

الفُرس أصحاب حضارة، على عكس ما كان العرب، ولم تكن سيئة تمام السوء والعكس خطأ بالطبع، لكن الأمر بموضوعية التاريخ المُزوّرة؛ لم يكن هناك إلّا الخطأ يشوبه الصحيح القوي، أو الحق يخالطه بعضًا من الضعف الذي يأكل في جذور شجرة الحضارات..

ابدأ الذكر بقول للصحابي –أو التابعي– المُثنّى بن حارثة –رضي الله عنه– وكلمات قالها

قبل موته بأسابيع وسط الحرب مع الفارسيين؛ تحديدًا قبل معركة القادسية الشهيرة..

(قد قاتلتُ العرب والعجم في الجاهلية والإسلام، والله لمائة من العجم في الجاهلية كانوا أشدّ على ألفٍ من العرب، ولمائة اليوم من العرب أشد على ألفٍ من العجم، إن الله أذهب مصدوقتهم ووهن كيدهم فلا يروعنكم رهاء ترونه -يعني هيئتهم- ولا سواد -كثرتهم- ولا قسي مج ولا نبال طوال إذا أعجلوا عنها أو فقدوها كالبهائم أينما وجهتموها اتجهت..)

هنا نقطة تلاقي مع كلمات الُمثنّى، هنا معقل الفرس وضرب خيام في وسط صحراء الحكمة، هنا يجب أن نقف؛ نتعقّل..

فلا يروعنكم رهاء ما ترونه..الهيئة ليست مهمة، الملابس؛ "الموضة"؛ الأُبّهة؛ العزّة، كل ذلك ليس مهًما، نحن لا ننظر لهذه الأشياء، لا نتهافت عليها، ليست هدفنا، ليست هدف ديانتنا وإنما هي أمور ليست لها الأولوية الُمطلَقة، ليست قضيتنا الأولى، نصر الله لنا لن يأتي بهذه الطريقة، لن يأتي!!، لن يأتي إلّا بالأسباب الحق والأخذ الحق بها، وفي هذا لو أسقطناه على العالم اليوم لعبرة!!.

ولا كثرتهم!!..ليس لأنهم كُثُر فهم أقوياء، يستطيعوا ما لم نقدر نحن عليه، لا، لقد

أذهب الله صدقهم وقضيتهم إلى الخواء، الذي يعيشون فيه، يخافون؛ يعتريهم القلق على دنياهم، وفي هذا إسقاطًا آخر على دنيانا نحن هذه المرّة، الكثرة التي لا تُفِيد البشريّة بأدنى شئ!!، إسلام القضية ليس هنا بقدْر ما هو إسلام الوراثة..

وقبل الخوْض في تاريخهم بشكل بانورامي سريع، لابد وأن يكون هناك عبرة لمن يعتبر؛ تذكرة لمن يرهف السمع ولا يُثقِله.وهي كلمات ستُعاد كثيًرا لأنها ضرورية، ولأن كل ما يتكرر ربما يتقرر..

فإذا أقمت حضارة فلا يجب أن تجعل من مِعوَل البناء هدم فقط؛ هدم لِمَا تراه خاطئ، أو لِمَا تراه شاهق..

هل يمنع هذا من الحلم؟ هل تمنع تلك الكلمات التي تنتقد حال العالم وليس حالنا فقط من البناء؟ من الإكتفاء بالذات ومساعدة العالم؟ الحلم ليس ممنوعًا، التكاسل عنه والتقاعس عن تحقيقه هو الممنوع..

ولكن.هل كان هناك إيجابيات فارسيّة؟؟ بالطبع..

(ما هذه الطريقة التقليديّة)..؟

ويجب أن نعلم أن رسولنا الكريم قد استخدم الخنادق وهي فكرة فارسية، فهذه واحدة..و..

(أيضًا.هذه طريقة تقليديّة)..

أتعلم أن عمر بن الخطّاب –رضي الله عنه– أقام دولة الإسلام من الناحية الإدارية بالطريقة الفارسيّة..لكن كيف.هل كان لديهم إيجابيّات..أقول لك..نعم..مثلًا..

يبدو أن الطرق التقليديّة لا تنتهي ، علينا إذًا أن نتّبع إحداها وندخل إلى بلاد فارس سريعًا، ربّما لا نخرج إلّا ومعنا من العلم ما ينفعنا، هيّا –بالمناسبة..هذه أيضًا إحدى الطُّرق التقليديّة التي ندخل بها إلى دراسة التاريخ كهواة ولكنها طريقة طفولية قليلًا..وأنا أحب أن أكون طفلًا لبعض الوقت..).

****

بلاد فارس..

بكل حضارة، بأي حضارة، هناك نوعين من البشر؛ المؤثِّر والُمتأثّر به..

أو القائد فكريًا أو سياسيًا أو إجتماعيًا – ومن يسمعه؛ ويُرحِّب بوجود كلماته داخل العقل بصورة ذهنية شبه كاملة للتقدِّيس مثلًا أو ما شابه..

في كل حضارة.. هناك الُمجدِّد؛ الذي أرهق نفسه وفني عالمه الذي يستمتع به ويستهلك نزواته فيه؛ مُقابِل أن يعمل عقله ويُطْحَن قلبه لينشر ما تبقّى منه على الأشخاص أو البشر المستفيدون من التجديد؛ من الإرهاق وفناء الإستهلاك؛ من الإنتاج الفكري وطحن العقل حتى إستخراج العُصَارة اللذيذة..

ومن رحمة الله علينا أن الشخص الُمجَدّد –رغم قلة وجوده– مؤثِّر وتأثيره يكون بألف شخص من المستفيدين أو ما يزيد عن ذلك..

في الحضارة الإسلامية كان عمر بن الخطّاب –رضي الله عنه – ثم عمر بن عبد العزيز ثم الشافعي وهكذا كما أخبرنا النبي أنه على رأس كل مائة عام..

كذلك الحال كان في كل أمّة، وكان لابد وأن يكون في كل أمة لتستمر الحضارات أو ليستمر الحق من باب أوْلى حتى وإن كان إستثناءً ا..

أول شخصيّة في تاريخ الفُرس كانت من هذا الطِراز التجديدي منوجهر –وهذا اسمه– ..وللمعلومات ظهرت نبوة موسى –عليه السلام– في العام الستين من حكمه..

وكان يُوصَف بالعدل والإحسان، أول من خندق الخنادق، وجمع آلة الحرب، كان مُجدّدًا، أتى في وسط حقبة من حُكّام الهدم والإستبداد، لكن بشخصه المُجدّد، كان بتأثيره وأفعاله قويًا بما يكفي لحمل رَكْب الحضارة على عاتقه، والإنتعاش بها مرة أخرى، فرد واحد مؤثّر، لا تقديس له ولا تعظيم، لكن الحق يُقال، و الحق في التاريخ مجرد وجهة نظر تحتمل المراجعة..

والشخصية الثانية في تاريخ فارس، كيكاووس، وكان عهده في نفس عهد سيدنا سليمان – عليه السلام– ، كان مُتصفًا بالحكمة والمسؤولية، أي حكيم قادر على التغيير إذا كان يتصف بالمسؤولية، وحتى فترة ليست بالكبيرة كان الحكم بين يديه مُستقرًّا إلى حد ما، حتى انقلبت الحياة على رأسه فجأة –تبعًا لحالة الدولة الإجتماعية والسياسية والصراع

على الحكم وقتها- ، وخرجت عليه الخوارج تتوعّده، حاربهم، كان يفوز عليهم تارة ويظفرون هم بمعركة تارة أخرى..

وفي ذلك بيان، أنه مهما كنت ملاكًا، أو مُبشّرا بالجنان، تفعل الخير، صادق والصدق فعلك، أمينًا والأمانة موضع رأسك، فلن تسلم، لن تسلم من عين حاقد، من مصلحته ألّا تُكمِل في طريقك، ليس ذلك تطبيقًا على كيكاووس، ولكن تطبيقًا على كل من أحبّ الحكمة وعمل ببيانها، والأفضل أن تكون عاملًا بها، بذلك تقهر الحاقدين، وليس بالإعتداء أو ردّه -وإن كان جائزًا-..

وفي تاريخ فارس، قباذ وأنوشروان، ملكين كان أولهم قباذ ومن بعده أنوشروان، الملك قباذ -وكما ذكر ابن الأثير-؛ كان ملوك فارس من قبله يأخذون الغلّة الخمس والسدس وعلى قدر شرابهم وطعامهم وسكنهم وبنايتهم الجديدة، لكن الملك قباذ نظر وانتظر ولم يعتبر للعادات والتقاليد، رأى أنه نوعًا من البذخ إن لم يكن السرف والترف بعينهما، فأمر بمسح شامل للأرض التي يحكمها، ليحدد كم من الضرائب من الممكن أن يفرضها، ومات قبل أن يُكمِل هذا الأمر، ومن بعده أتى أنوشروان، وأمر بإكمال المسح الشامل، وبالفعل تمّ في عهده، ووضع الخراج على الحنطة والشعير والكرم -العنب- والرطب

والنخل والزيتون والأرز، على كل نوع من هذه الأنواع شئ معلوم، وبقى أن أقول أن هذا النظام طبّقه أمير المؤمنين عمر بن الخطّاب –رضي الله عنه– في حضارة المسلمين؛ في دلالة على أن العدو رغم خطأه إلّا أن إيجابياته لا تُمحى، حسنه حسن وقبيحه قبيحه..

أنوشروان لم يأتي ليمحي ما كان قبله، وجد أن الأمر به منفعة عامة فأمر بإستتمامه، ومن بعده عمر بن الخطّاب، هل هذا يُنقِص من قدرهما ؟ بالعكس، لا ينقص من قدرك أن ترى الطريق الصحيح ولا تُكمِل الخُطى فيه، لكن العيب أن تمنع نفسك والناس من شئ كاد ينفعهم وأنت قطعته عليهم بحجة أنه من الماضي الفاسد..

هل يعني ذلك أن كل حُكّام فارس كان فيهم من الجمال والعدل ما جعل حضارتهم حضارة لا تُضاهى؟!لا بالطبع، إنها إيجابيّات من الواجب ذكرها، ولكن الصورة الكاملة لابد وأن تتضح، تظهر وتتجلّى بالوجه الآخر، الوجه القبيح؛ والذي من أجله كان من الواجب على الحضارة الإسلامية الخلّاقة أن تفوقها في العدل والجمال والجلال..

إن إيجابيات تلك الحضارة كانت من الأور الإستثنائيّة، وتلك الأمور لا تصنع الحضارات ولا تقويها ولا تقوّمها، القاعدة لابد وأن تكون الشئ الصحيح النافع والإستثناء غير ذلك،

الحضارة التي يكون بها الظلم هو القاعدة والعدل هو الإستثناء! الكذب هو القاعدة والصدق هو الإستثناء! ستكون حضارة خاوية على عروشها؛ حتى وإن لم يكن ظهر ذلك بعد، سؤال أسأله هنا، إذًا لماذا كانت حضارتي الفرس والروم موجودة إذًا وقائمة حتى ذلك الوقت؟

والجواب واضح، لأنه لم يكن هناك مرايا، لم تكن هناك حضارة موازية تقف كمرايا لتُبيّن السئ فيهم –وهذا ما فعله الإسلام بعد ذلك–..

فأين هو السئ إذًا؟؟

****

الكلام عن الوضع الديني للفرس، وديانتهم الزرادشتية وعبادة النار وكل ماله علاقة بالضوء ليس ضروريًا، يكفي أن أقول أن الأبستاق – الكتاب الُمقّس للديانة الزرادشتية (المجوسية)– قسّم البلاد لثلاث طبقات عنصرية..

الكلام عن الوضع العسكري وإستخدا مهم الفلاحين البسطاء وعُمّال بالسُخْرة في جيشهم لمحاربة الروم أو الخوراج، ولم يكن لهم أية إمتيازات، الإمتيازات كلها كانت تصب في صالح قادة الجيش –الفارسي–فقط، ليس ضروريًا أيضًا..

لكن الكلام مهم في الشئ الذي كان مُميزًا في الإمبراطورية الفارسية في أواخر أيامها، نظام السبع طبقات، هيبتا ولكن بالفارسي..

كانت الدولة الفارسية مُقسّمة لسبع طبقات؛ وكل طبقة لها امتيازات تقل كُل ما تهبط..

الطبقة الأولى..طبقة الملوك، الملك وحاشيته، وكان الملك يحكم بالحق الإلهي، بمعنى أنه تقريبًا يصل إلى حد إدّعاء الألوهية وإن لم يقولها صراحة أو قالها ككسرى أبرويز والذي أطلق على نفسه –الرجل الخالد بين الآلهة– ، بمعنى أن الصلاحيات مُطلَقة، ولا أحد يقدر على التنفس في وجوده؛ وحق الإعتراض ليس موجودًا، كيف وهو مُقدّس وأوامره مُقدّسة..

في عالم موازي مثالي وواقعي، وفي وقت إنهيار الدولة الفارسية، كُنّا هناك، وكان المشهد جليًّا جليلًا، في دولة تحكم بالعدل وبنظام الطبقات التنافسية؛ التنافس في الخير وليس الصراع على الدنيا، هناك في العالم المثالي الواقعي هذا، دخل رسول كسرى ملك الفرس

المدينة المُنوّرة –مقر الخلافة في ذلك الوقت–، سأل عن الخليفة فأخبروه أنه نائم في المسجد، فقال قولته الشهيرة، والتي كانت فارق بين حضارتين

{ حَكَمت.. فَعَدَلت.. فأَمِنت.فنِمت..يا عمر..}..

الطبقة الثانية.. طبقة الأشراف، أغنى سبع أُسَر في الدولة، الرأسمالية القوية في دولة اللاوعي، وكانوا يتحكّمون في حركة التجارة، إحتكار السلطات بحق الأموال التي في خزائنهم، فكان منهم قادة الجيش والوزراء وغيرهم..

الطبقة الثالثة..رجال الدين، أصحاب الكلمة المسموعة، والتأثير الخارق على العامة بحق قداسة الملك..

الطبقة الرابعة.رجال الحرب، القادة الفرعيين والضبّاط، وغيرهم من رجال الحرب أصحاب الأماكن القياديّة..

الطبقة الخامسة.كانت تتألّف من موظفي الدواوين أو الكُتّاب، وهي تضم كُتَّاب الرسائل والحسابات والشُعراء والأطباء والمُنجّمون..

الطبقة السادسة..رؤساء القُرى ومُلّاك الأراضي ووظيفتهم الأساسيّة هي جمع الضرائب وتمويل الدولة..

الطبقة السابعة..الطبقة المطحونة، طبقة الفلاحين والرعاة وأهل الحرف، وهؤلاء من يأخذون منهم كي يتنعم أصحاب الطبقات الثلاث الأُول..

أمّا الطبقات الثلاث الأخرى، فكانوا يقتاتون على الفتات الذي يتركه أصحاب الطبقات الكبيرة..

ومن الغريب أن كل هذا كان بقانون، ينص على أن كل إنسان ملتزم بالعمل الذي يعمله والده؛ وأن يتعلّم منه العمل أو الحرفة وليس له عمل آخر..

ولا يطمح بأي حال أن يكون من غير طبقته، بمعنى أن الطموح في الدولة الفارسيّة كان جريمة يُعاقب عليها القانون، والأدهى من هذا أن هناك قانونًا ينص على أن ابن الضابط لا يكون إلّا ضابطًا وابن الفلاح لا يكون إلّا فلّاحًا وابن الملك بالتأكيد لا يكون إلّا ملكًا وحتى ابن رجل الدين لابد وأن يخرج من صلبه رجل دين وهو كذلك، ألا يُذكّركُم هذا بشيء؟!هناك كان قانونًا، ونظام الطبقات هذا كان من أقوى الأسباب التي جعلت من الثورات والإنقلابات تزداد في الفترة الأخيرة من الحكم الفارسي..

بقى هناك طبقة أخيرة؛ ثامنة، تتعامل معاملة البضائع أو قل الحيوانات، المرأة، نعم هي المرأة، والتي كان من ضمن الظلم الواقع عليها من جملة الظلام الذي كان يعيش فيه

الفرس، أن الشخص من الممكن له والجائز أن يُهدي لصديقه زوجته بشكل لا تشوبه شائبة الخطأ أو العيب أو النُقصان؛ وكأنها من جُملة الأشياء التي اشتراها، وكانت من أبشع صور الظلم في رأيي..

لّما أتى الإسلام، ودستوره العظيم، حكم بمفهوم {قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون} (الزمر : ٩)..لكنها ليست دعوة للطبقيّة، ولكن دعوة لتسخير الناس بعضهم لبعض، كما في آية أخرى تُكمل هذه الآية {فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون} (النحل : ٤٣).. فغير العالمُ طالب بأن يتعلّم ولا ينبغي أن يبقى جاهلًا، الطموح والأمل هما المُحرّك الأساسي للحياة؛ والعلم كان أفضل مثالًا لهذا الأمر، لأنه بالتبعيّة أفضل طريق نستطيع أن نصل به لتحقيق الأحلام والحضارة المرجّوة..

الإسلام ثورة صحيحة..

****

المرايا..

وكما تحدّثنا عن الشئ الذي أصاب حضارة الفرس في مقتل، وهو الطبقية العنصرية والصراع، بقيت المرايا..

عندما وقف الإسلام والحق في وجه الإمبراطورية الفارسية، ما الذي رآه الفرس؟!

ربما هناك حادثة في التاريخ تخبرنا بما رآه الفرس وقتها، على لسان الفرس، هذه القصة زمانها قبل موقعة القادسية الشهيرة والتي كانت بمثابة قصمة ظهر للحضارة الفارسية وتقهقرها أمام الحضارة الواعدة..

القصة كما وردت بالنص في كتاب إتمام الوفاء في سيرة الخلفاء لمحمد الخضري وكتاب استرداد عمر للدكتور احمد خيري العمري..وفيها

(... ثم إن رستم –قائد جيش الفرس– خرج بجيشه الهائل،مائة ألف أو يزيدون، من ساباط، فلما مر على كوش –قرية بين المدائن وبابل– لقيه رجل من العرب فقال له رستم : ماجاء بكم؟ وماذا تطلبون منا؟ قال : جئنا نطلب موعود الله بملك أرضكم وأبنائكم إن

أبيتم أن تسلموا .. فقال رستم :قد وضعنا إذاً في أيديكم .. قال العربي : أعمالكم وضعتكم فأسلمكم الله بها فلا يغرنك ماترى من حولك فإنك لست تجادل الإنس وإنما تجادل القدر !

فغضب منه رستم وقتله..فلما مر بجيشه على البرس –قرية بين الكوفة والحلة– غصبوا أبناء أهله وأموالهم وشربوا الخمور ووقعوا على النساء! فشكى أهل البرس إلى رستم فقال لقومه : والله لقد صدق العربي! والله ما أسلمنا إلا أعمالنا والله إن العرب مع هؤلاء وهم حرب أحسن سيرة منكم)..

انتهت القصة، وانتهت الحضارة الفارسية يومها، أرى ذلك، أرى السقوط يوم أن سقطت على لسان رستم تلك الكلمات، وقامت دولة الإسلام يوم أن أقام العربي ببناء ذلك الرد القوي..

–– أعمالكم وضعتكم فأسلمكم الله بها فلا يغرنك ماترى من حولك فإنك لست تجادل الإنس وإنما تجادل القدر! ––

هل لكم في الخيل عبرة؟ تخيّل هذا الأمر المهيب، أن المسلمين في يوم من أيام الله كان إعتقادهم التام أنهم جزء من قدر الله، لأنهم عرفوا السنن وتأدّبوا في طلبها، لأنهم اتبعوا

الحق وعقلوه وفطنوا الفرق بين العالم قبل الإسلام وبعده، نفوسهم قبل الإسلام وبعده، ذاقوا طعم الهداية الجالب للعزة، فكانت النتيجة الحتمية أن ينسجموا مع الكون، أن يكونوا جزء ً ا من قدر الله..

يعلمون الحق ويعملون به، مستمرين حتى الرمق الأخير، وعد الله لا يخلفه –سبحانه–، طالما أن الحفاظ على العهد بكلمة الحق موجود، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله..

هلنحن جزء ً ا من قدر الله؟ هل انسجمنا مع أنفسنا أولًا قبل الكون؟ هل انسجمنا في صلاة الجماعة لنصبح جزء ً ا لا يتجزّأ من ال –نحن– الفاعلة وليست –الأنا– الأنانية؟ أم ما زلنا نُعاتِب القدر كأصحاب الجاهلية الأولى؟ هل التزمنا بالعهد وحافظنا عليه أولًا قبل أن نرمي مصائبنا وعلّتها في ميدان القدر؟!

هل لابد وأن أصيح أن العودة للطريق الذي تخطو فيه كل الكائنات إلى الله هو الطريق الصحيح؟! هل أصرخ بأن المنهج هو منهج الله، هل أخبركم أن النصر ليس بأيدينا وإنما بيد الله، هل علّي أن أجّركم إلى العطاء الإلهي الذي ينتظرنا إن نحن حافظنا على العهد، أم أنكم رضيتم بفرس رستم؟!

{يا أيها الذين ءامنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم}..محمد..٧

الكلمات واضحة جدًّا، والفعل ليس صعبًا بالتأكيد، والثورة تحتاج فقط من يثور..

****

بلاد الروم..

دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله..

كانت الديانة الرسمية هي المسيحية، ولكن بالنسبة للحاصل داخل حدود الدولة المتدينة –بالفطرة– لم يكن ليرضى عنه المسيح بأي حال، كانت الأحوال كبلاد فارس لكن هنا بغطاء دين سماوي، تناسوا أن الدين رحمة وسلام ففقدت النصرانية روحها، لما اعتنقها قسطنطين وجعل منها دين للدولة وفصلها عن السياسة عدا فكرة واحدة وهي ما أودت بتعاليم المسيحية إلى شفا الهلاك؛ أن الله اختار الإمبراطور لهذا المنصب، كان الأمر مشابهًا لحضارة الفرس، لكن كما قلت بغطاء دين سماوي..

الربا والضرائب الباهظة والإحتكار كانت أعمال تمتاز بها تلك الحضارة، وإذا كنا عرفنا نظام السبع طبقات في الفرس، فهنا وفي دولة الحب والسلام واختيار الإله للإمبراطور لم يكن سوى طبقتين فقط؛ الطبقة الحاكمة سواء أكان الإمبراطور أو القادة أو الكنيسة وباقي الشعب في طبقة تحت الأرض تقريبًا..طبقية مروعة..

القسوة والعنف، التعصب والجهل، الخرافة ثم الخرافة، سمات بلاد الروم إذا حكى لك شخص تاريخ تلك المرحلة التي سبقت الإسلام، بسبب ضعف الإيمان؟ ربما، وعدم ثقة الناس في رجال الدين؟ هذا أقرب للواقع، لواقعْين وليس واقع واحد !! رجال الدين كانوا أغنياء إلى الحد الذي ينادون فيه بالتقشف، إقطاعيين إلى تجاوز الحد والمناداة بأسلوب يترقرق له الدمع في أعين العامة بالزهد ونسيان هذه الدنيا الفانية، هذا أقرب للواقع، لواقعْين وليس لواقع واحد!!

أتى الإسلام، حارب الفقر، نعم حارب الفقر، كما حارب الطبقية..

لكن الإسلام حثّ على الزهد والتقشف والفقر والفقراء يدخلون الجنة قبل الأغنياء بأربعين سنة وكلام من هذا القبيل نسمعه منذ عشرات السنين حتى نرضى ويكون رضانا ثمنه الجنة في الآخرة والسكوت عن الظلم في الدنيا، لكن لم يحض الإسلام على هذا الأمر، قطعًا لا..

بالعقل..

أين نحن من الآية الكريمة

{الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً} (البقرة:٢٦٨

)..

الشيطان يعِد بالفقر، يعِد بالذل والمسكنة، يعِد بمد اليد وأن تكون ذا حاجة، يعدنا جميعًا بأن نكون محتاجين لأمور الدنيا حتى نستطيع تبرير الفاحشة، هكذا الأمر إذًا، لكن الله يعدنا المغفرة والفضل، المغفرة في الآخرة والفضل في الدنيا، وما الفضل في الدنيا سوى العيش بكرامة، بكرامة يا من كنتم أسياد العالم لأنكم كنتم جزءًا من قدر الله، من كلمات الله..

هل كان النبي فقير؟

كان زاهدًا لكنه لم يكن فقيرًا..

وتكفي الأحاديث في إثبات أنه كان له في يوم غنم بين جبلين فتصدّق بها، كان غنيًا لكنه كان زاهدًا في الدنيا، لم تكن تشغله الأموال عن رسالته، كان له من الزوجات الكثير، من أين كان يصرف عليهم وهو نبي لا يقبل الصدقة؟! اعقل الأمر، الإسلام لا يحض على الفقر، الإسلام دين موطنه الكرامة الإنسانية فكيف يقبل بعكس ذلك، { ووجدك عائلًا فأغنى }..(سورة الضحى..٨)..

جل ما أريد أن أصل إليه أن الفقر وثقافة تمجيده كفيلة بأن تهدم حضارة قوية أو تنخر في

أساسها حتى يتهاوى بناء مجد..

يقول الشيخ محمد الغزالي في كتابه –الإسلام والطاقات المعطّلة–

{ إن أعدادًا كبيرة من المسلمين تزعم أن النبي فضّل الفقر على الغنى ودعا إلى الفقر، وبهذه الفلسفة الجبانة نشروا الفقر، وقبول الفقر، وحب الفقر، وأنه أفضل عند الله من الغنى والمعيشة الكريمة، وبذلك فقدت الأمة فاعليتها }..

فقدت الأمة فاعليتها..!!

****

وعملًا بمبدأ الإنصاف والموضوعيّ، سننقل جزء ً ا بسيطًا مّمكتبه الُمؤرِّخ كرد علي عن تاريخ الروم في بلاد الشام..

وكان فيَمقاله..

{كانت معاملة الروماني للشاميين بادئ بدء عادلة حسنة مع ما كانت عليه مملكتهم في داخليتها من المشاغب والمتاعب. ولّما شاخت دولتهم انقلبت إلى أتعس ما كانت عليه

من الرق والعبودية، ولم تضف رومية بلاد الشام مباشرة ولم يصبح سكانها وطنيين رومانيين، ولا أرضهم أرضًا رومانية، بل ظلّوا غرباء ورعايا، وكثيًرا ما كانوا يبيعون أبناءهم للرومان ليوفّوا ما عليهم من الأموال، ولكم أن تتخيلوا فظاعة ما كان يجري مع أبنائهم من انتهاكٍ للأعراض وغيره، وقد كثرت المظالم والسخرات و الرقيق، وبهذه الأيدي عَّمر الرومان ما عّمروا من المعاهد والمصانع في الشام }..

وفي نهاية رحلتنا الخاطفة مع الروم نقول، أن أي حضارة –مهما كانت– قد قامت على أسس أخلاقيّة، لأنه –فيمَ أعتقد– لا يُوجَد حضارة تقوم على ظلم، لكن بسبب ما –قد يكون أقرب لضياع الأخلاق– هو السبب في سقوط تلك الحضارة..

مشكلة الروم الكُبرى في كوْنهم تاريخيًا أهل كتاب –مسيحيين–، لكن الإيمان لم يدخل بيوتهم ولا هو طَرَقَ قلوبهم، قِيَمهم التي يجب أن تكون أساسًا لقيامتهم الدنيويّة ضاعت وسط الحياة الدنيا التي أخذتهم أخذ مقتدر هم من قدّروه وعظّموه، كما المثل سمِّن كلبك ليأكلك، وهكذا كانت الروم..

الرموز الدينيّة أيضًا، كانت موجودة في قصورهم، بيوتهم، مراسلاتهم، جيوشهم، كانت موجودة هذا ما وصَلَنا، لكن الدين نفسه، شرائع الدين، مبادئ الدين الأساسيّة أين

ذهبَت؟ لم تكن موجودة؟ مثل المصحف الذي يُعلّق للزينة؟ مثل الآيات القرآنيّة التي تُعلّق لدرء الحسد؟ مثل قرآن المآتم وكأن القرآن أصبح كتابًا للموت فقط؟! للأسف نعم، نعم أصبحنا الروم التي ستسقط إن لم تكن راكعة لدنياها بالفعل..

حقّرنا من شأن أنفسنا كثيرًا يا رِفاق عندما تركنا القرآن، عندما استخدمناه في غير ما نُزِّل إليه، تركنا السبب الرئيسي واتّجهنا نحو ما أوْدى بنا إلى عكس ما كُنّا عليه..أصبحنا عالة على البشريّة عندما تركنا القرآن..

{نحن قوم أعزّنا الله بالإسلام –بالدين الحنيف– ..فإن ابتغينا العزّة في غيره –الجيوش أو الأموال أو التقليد الأعمى– أذلّنا الله} فأذلهم الله..أقصد الروم بالطبع !!

****

الجاهلية..

العالم إذًا في اللغة هو كل الخلق، والخلق المذكور في أدمغتنا هي مجموعة يسيرة، ومن اليسير من يسير بعقولٍ تشبه عقولنا، حباها الله بنعمة التفكير؛ إنهم البشر..

العالم السفلي الذي نقصده ليس هو عالم الجن، لأننا علمنا بوجودهم بيننا؛ يؤمنون بما يؤمن به بعضنا والبعض فيهم أيضًا، أما العالم السفلي الحقيقي هو العالم المنخرط في الرذيلة والأعمال الإجرامية؛ والتي أتى الإسلام كي يُنْقِذ العالم منها، لكن الكثير من اليسير من الخلق المذكور لا يهتم بما أوحي إلى أعظم الخلق المذكور..

أتى الإسلام كي يصنع حضارة، فائدتها ليست مُقتَصِرة على قومٍ بعينهم؛ لكل المخلوقات اليسيرة بالتأكيد؛ حضارة تدرء الجاهلية..

قبل..كلمة تدل على التقدُّم في الموعد مثلًا –جاء قبل اللقاء–، وكلمة بعد في تضادٍ مع قبل، جاء بعد اللقاء، كان اللقاء في الإسلام في موعده المُحدّد، كان كل شئ بحسبان..

إذًا ما هو الإسلام؟؟

هو الخضوع؛ الخضوع لأمر الله على أي دين من الأديان..

إبراهيم –عليه السلام– كان مسلًما..

أي مسيحي حق وأي يهودي حق هو مسلم..

أي شخص لم تصله دعوة محمد –وهذا إفتراض صعب الحدوث في الوقت الحالي– ومات وفي قلبه ذرة من خضوع لرب الكون يدخل الجنة..

ما الفرق إذًا؟!

الفرق في الشريعة..الشريعة بما فيها من تعاليم قرآنية ومصادر تعليم وتشريع أخرى مثل السنة..

قمة الخضوع تتمثّل في الركوع، والركوع جزء من جزء أساسي من الشريعة..خضوع العقل؛ الحضارة لا تساوي شيئًا إلّا بعقل..

نستنتج الآتي...

****

النبي سّمى كل ما هو ضد الإسلام بالجاهلية، لأن الجاهلية وعلى حد وصف النبي تُمثِّل إنهيارًا للمجتمع، إنهيارًا للعقل، وللعلم والعالم من بعده، والذي لا يؤدِّي إلّا إلى إنهيار البشرية..

العالم قبل الإسلام إذًا لا يُسّمى إلا الجاهلية.. في كل مكان وبكل الأزمنة وبأي عقليةٍ كانت..

****

ثبت في الصحيحين عن جابر بن عبد الله قال: كنا مع النبي –صلى الله عليه وسلم– في غزاة، فكسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار.. فقال الأنصاري: يا للأنصار.. وقال المهاجري: يا للمهاجرين..

فقال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: (ما بال دعوى الجاهلية).. وفي رواية: ما لكم ولدعوى الجاهلية؟!

قالوا: يارسول الله كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار

فقال –صلى الله عليه سلم–: (دعوها فإنها منتنة)..

حديث بلغ من الأهمية ما قد بلغ، الجاهلية هنا تساوي العنصرية والعصبية القبلية..

ألف باء هدم أمة، إذا أردت أن تمحوها من على وجه البسيطة أو تبقيها بلا فائدة تُذكر؛ كغثاء السيل، أن تجعلهم فريقين؛ في أي شئ ويا حبذا لو في كل شئ، في الرياضة أو الفن أو الدين؛ أي شئ..المهم أن يكون هناك فريقين..ثلاث فرق أو أربعة ومن كل فريق تنقسم الفرق وهكذا، حتى يبدون شراذم قليلة ويسهل أكلهم ومضغهم دونما إعتراض..ولكن ترى هل تفهم الأمة نفسها هذا الأمر؟! هل تغييب الوعي هو شرط أساسي في تفرقة الأمة؟! الوعي هنا متمثّل في رسول الله –صلى الله عليه وسلم–..

إذاً فلنتخيل الأمر بدون رسول الله..كيف كان سيكون؟!

جيش منتصر، أمة واعدة تحبو في عالم الحضارة، من بلدين مختلفين تحت راية واحدة تجمعهم، أحد المهاجرين ضرب رجل من الأنصار، مهما كان الأمر هزلًا أو فيه شئ من الجد، اعتبرها الأنصاري جد وهّم في الدفاع عن نفسه بمناصرة إخوانه من فريقه هو؛ الأنصار، استقوى بأهل بلده وخاصته، نسي الراية التي جمعتهم لوهلة والوهلة كفيلة بهدم

دار أُسّست على التقوى من أول يوم، نسي قضية الحق وفكّر بشكل أناني؛ لا حق إلا حقه هو؛ لوهلة ووهلة الشيطان كفيلة بالنسف..

أما عن المهاجر فقد استرجع ماضياً كان وتم حذفه من المناهج بداخل المدرسة النبوية، القبيلة التي كانت تتعصّب لأبنائها وتحميهم بالدم وتبكي عليهم الدموع وتُحرّك السيوف من أجل ولدها، تذكّر؟ ربما، نسي كل تعاليم الإسلام لوهلة غضب أولى ورد فعل من غير تفكير، فنادى المهاجرون لينصروه..

المُلاحظ هنا أن الحديث لم يذكرهما بأسمائهما، لم يكونا من الصحابة المشاهير الذين أُشْرِبوا في قلوبهم تعاليم الإسلام الجليلة، لم يعرفهما الحديث حتى لا تكون فتنة، أحد المهاجرين وأحد الأنصار والموضوع انتهى، لكن بقى درس للأجيال من بعده، تجّمع المهاجرين مقابل الأنصار وانقسموا، الغضب في عيونهم، والحماسة المشوبة بعصبية قبلية..

ماذا إن غاب الوعي؟!

ماذا إن غاب النبي وغابت تعاليم النبي؟!

يشتبكوا، دم يجر دم، وفجأة؛ ينتهي كل شئ، تذهب القضية وتحضر الجاهلية، وتسقط

الحضارة بسبب غياب العقل وإعمال العاطفة بغير مرجعية واعية..لكن هناك مرجعية..

يقف الرسول الكريم صلوات ربي وسلامه عليه، الأمر أكبر بكثير من مجرد استنجاد شخص ما بقبيلته، الأمر أشبه بإنهيار حضارة، ليس أشبه ربما..

(مالكم ودعوى الجاهلية).. مالكم ومال جاهلية نحاربها؟! نحارب مرضًا ينخر في أي منظومة كالسوس ويجعلها مساوية للأرض..

لم يأمر النبي بإجتناب مثل هذه الأمور فقط، بل علّلها، قال إنها مُنْتِنة؛ تعافها النفس البشرية السليمة، أي نفس وفي أي زمان وبأي مكان وأسفل كل راية أخلاقية سليمة لا تقوم على جثث الأبرياء أو عنصرية بغيضة، لا تكون حضارة إلا بتماسك بنيانها وما بنيان الإسلام إلا مسلم لأخيه المسلم يشد ويؤزر بعضه بعضًا؛ بنيان مرصوص..

مُنْتِنة؛ تعشقها النفس المريضة بالكبر والغرور والخيلاء والعجب، والتي أتى الإسلام ليهدمها ويهدم إدّعاء حضارة مزيفة قامت على الباطل والنفس المتكبرة..

المنظومة الأخلاقية التي حددها النبي -صلى الله عليه وسلم- لابد وأن تكون مكتملة البناء..شديدة التماسك كي تُؤتى ثمارها..

يقول الرسول -صلى الله عليه وسلم-

{المسلم للمسلم كالبنيان يشد بعضه بعضًا}.

****

بعضًا منّا يجرح الآخر في عقيدته..مبادئه..أغلى شئ في حياته؛ بدعوى من الكبر والغرور.

نخجل من الأسف والندم أو حتى العودة لباب التوبة.

المسلم -بالإسم- يسب أصحاب الديانات الأخرى بدعوى أنها كفر وإنحلال.

وغير المسلم -المتطرف- يسب الإسلام بدعوى أنه دين همجية وإرهاب ووحشية.

المسلم المتطرف لا يفهم معنى تقبل الآخر، وغير المسلم المتطرف لا يعرف الفرق بين الإسلام وبعض المحسوبين عليه، لكن هو الكِبر والغرور ودعوى الجاهلية، والجاهلية ما هي إلا العالم قبل الإسلام؛ رغم كل ما فيه من أخلاقيات إلا أنه يعيبه الخطأ في كل وهلة.

الجاهلية رمز للتدمير؛ تنخر في الدار المتماسك وما تُبقي سوى فتات من تاريخنا نفخر به ونحن منه في حِلْ، الجاهلية التي فضحت ما فينا من كبرياء زائف ما أنزل الله به من سلطان ولا أمر به نبي ولا رسول، وما ارتضاه الله لخير أمة، بل جعل شعارها الرحمة والتراحم فيما بينها.

لا داعي لجلد الذات فهو ُم على النفس، النفس لا تقبل إلا أن تكن مادحة لذاتها، لكن..لابد من وقفة؛ ثورة؛ والإسلام ثورة..

يقول أبو ذر الغفاري (اني ساببت رجلًا فعيرته بأمه..فقال لي النبي {يا أبا ذر أعيرته بأمه؟ انك امرؤ فيك جاهلية..إخوانكم خولكم..جعلهم الله تحت أيديكم..فمن كان أخوه تحت يده فليُطعمه مم يأكل وليُلبسه مم يلبس..ولا تكلفوهم ما يغلبهم..فإن كلفتموهم فأعينوهم})..

انك امرؤ فيك جاهلية.. انك امرؤ لم تجعل بينك وبين الجاهلية سدًّا منيعًا يكون أول بناء الحضارة..يكون أول ما يكون احترامك لذاتك..انك امرؤ فيك ما فيك من داء لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة منه.. ألا وهو الكِبر..كيف تنظر لإنسان وتُميزه عن بقية الخلق من خلال لونه أو هيئته أو جنسه أو حتى عمل والداه، مثله مثلك؛ متساويان،

والتمس لأخيك هذا مائة عذر وعذر، أخوك في الإسلام..في الجيرة..في الوطن..في الإنسانية.

أطعمه مما تأكل، البخل مرض، البخل في المال أو المشاعر، حتى في النظرة الراضية والإبتسامة الحلوة.

وليلبسه مم يلبس؛ لباس العلم..التعقل..التدين..الجمال..الحب..وما احوجنا للحب..

ولا تكلفوهم ما يغلبوهم، حتى نفسك.

فإن كلفتموهم فأعينوهم، رِجال، أعينا غيركم حتى ولو بأضعف الإيمان؛ ابتسامة، تراها هينة، لكنها في القلب كبيرة، وعند الله أكبر، وهل جزاء الإحسان يا أخي إلا الإحسان كما قال الرب الرحمن.

الأمر ما فيه أن الجهل انتشر، ليس جهلًا بالدنيا وعلومها..لقد وصلنا في هذا الأمر ما فاق الخيال وتعداه، لكن الإنسانية في أي حضارة وبأي ثقافة تحتاج إلى الأخلاق؛ عمودها الأول والأخير.

والأخلاق موجودة بأي ديانة وفي أي ثقافة كانت وتمامها في الإسلام العظيم، كما قال

رسول الله –صلى الله عليه وسلم–

{إنما بُعِثتُ لأتمِّم مكارم الأخلاق}

****

المراجع

١- القرآن الكريم

٢- صحيح البخاري

٣- صحيح مسلم

٤- السلسلة الصحيحة-الألباني

٥-الرحيق المختوم-المباركفوري

٦-الأغاني-الأصفهاني

٧-الكامل في التاريخ-ابن الأثير

٨-المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام-جواد علي

٩-موسوعة الرد على الملحدين العرب- د.هيثم طلعت

١٠-استرداد عمر- د.أحمد خيري العمري

١١-البداية والنهاية- ابن كثير

١٢-تاريخ الأمم والملوك- الطبري

١٣- إتمام الوفاء في سيرة الخلفاء-محمد الخضري

١٤-الإسلام والطاقاتُ المعطّلة-محمد الغزالي

١٥-كيف نفهم الإسلام-محمد الغزالي

١٦-تاريخ الروم في بلاد الشام-كرد علي

١٧-تفسير القرآن العظيم-ابن كثير

١٨-جامع البيان-الطبري

١٩-الجامع لأحكام القرآن-القرطبي

٢٠-في الشعر الجاهلي-طه حسين

٢١-تحت راية القرآن-مصطفى صادق الرافعي

تم بحمد الله وفضله